جامعة تكريت – كلية التربية للعلوم الانسانية .

قسم التاريخ .

الدراسات العليا : الدكتوراه في التاريخ الاسلامي .

مادة : السيرة النبوية .

عنوان المحاضرة : مقدمات البعثة النبوية

استاذ المادة : أ. م.د . حسين اعبيد الجبوري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمات البعثة النبوية .

لا شك إن العناية الإلاهية أحاطت برسول الله ﷺ منذ أول أمره ، لكن هذه العناية والتي يمكن ان نسميها عملية التدريب والإعداد لأمر النبوة والتي استمرت أربعين عاماً نجدها تزداد وتتوالى الأحداث في السنوات القليلة قبل البعثة ، أي أنها مقدمات النبوة ، لذلك نعرضها حسب تسلسلها الزمني على النحو الآتي :

أولاً : الرؤيا الصادقة قبل البعثة .

أورد البخاري خمسة أحاديث كلها عن أم المؤمنين عائشة زوج رسول الله ﷺ وجميعها بلفظ واحد وبأسانيد مختلفة بقوله : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة وأحياناً يقول الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكذلك أورده مسلم ، والترمذي باللفظ نفسه، لكن لا أحد من المحدثين يقف عند أول زمن بدأ به رسول الله ﷺ يرى هذه الرؤيا الصادقة ، كما أنهم لم يوردوا ولو شاهداً واحداً على تلك الرؤيا الصادقة بأنه رأى كذا وتحقق كذا كما هو الحال في رؤيا نبي الله يوسف عليه السلام التي ذكرها القرآن الكريم :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾، وقوله تعالى :﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾.

وأول روايات المؤرخون في هذا الموضوع عن عروة بن الزبير فقال وكان فيما بلغنا : " أول ما رأى ان الله عز وجل أراه رؤيا في المنام فشق ذلك عليه فذكرها رسول الله ﷺ لامرأته خديجة بنت خويلد بن أسد فعصمها الله عز وجل من التكذيب وشرح صدرها بالتصديق فقالت : أبشر فإن الله عز وجل لن يضع بك إلا خيراً ، ثم انه خرج من عندها ، ثم رجع إليها فأخبرها أنه رأى بطنه شق ثم طُهر ، وغسل ثم أعيد كما كان قالت : هذا والله خير فأبشر "، ان الراوي لم يذكر زمن هذه الرؤيا ولم يذكر مضمونها ولكنه ربطها برؤيا ثانية تتعلق بشق الصدر لكنه لم يذكر الزمن من ان خرج من عند خديجة لما حدثها بالرؤيا الأولى إلا ان عاد إليها فحدثها بأنه رأى بطنه شق ، ومن المعلوم ان حادثة شق الصدر وهو كبير كان مرتبط مع رحلة المعراج كما تقدم والمعراج متأخر بعد البعثة بسنين والحديث هنا عن أول أمر النبوة لذلك لا يمكن ان تكون هذه الرواية إلا رؤيا منام .

ووافق عدد من المؤرخين رواية البخاري ومسلم بنصها حول الرؤيا الصادقة ، وجميع رواياتهم عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أيضاً، وتفرد اليعقوبي بروايته التي يذكرها من غير سند بذكر الزمن الذي بدئ به رسول الله ﷺ يرى في المنام من أمر النبوة بقوله : " ولما بلغ العشرين من العمر ظهرت فيه العلامات وجعل أصحاب الكتب يقولون فيه ويتذاكرون أمره يتوصفون حاله ويقرّبون ظهوره فقال يوماً لابي طالب : يا عم اني أرى في المنام رجلاً يأتيني ومع رجلان فيقولان : هو هو ، وإذا بلغ فشأنك به والرجل لا يتكلم ، فوصف أبو

طالب لبعض من كان بمكة من أهل العلم ، فلما نظر إلى رسول الله قال : هذه الروح الطيبة ، هذا والله النبي المطهر فقال له أبو طالب فاكتم على ابن أخي لا تغرِ به قومه ، فوالله إنما قلت لعليّ ما قلت ولقد أنبأني عبد المطلب بأنه النبي المبعوث ، وأمرني ان استر ذلك لئلا يغري به الأعادي "، ان رواية اليعقوبي حملت بعض التناقضات إضافة إلى قول فيه لبس غير واضح الدلالة فقوله : (قلت لعلي ما قلت ولقد أنبأني عبد المطلب بأنه النبي المبعوث وأمرني ان استر ذلك) ، لم يوضح فيه قوله الذي قال لعلي ولم يبين ان قول عبد المطلب يقصد به علي أم يقصد به محمد ﷺ وان كان عبد المطلب يقصد رسول الله ﷺ فما مناسبة ذكر قوله لعلي الذي لم يبينه أصلاً ، وان كان يقصد علي فالأمر جدُ خطير على العموم فإن القول غير دقيق ، أما التناقضات في هذه الرواية فأولها انه قال لما بلغ عشرين من العمر ثم يذكر قول الرجل الذي يراه في المنام يقول إذا بلغ فشأنك به ، ومعلوم عند الجميع ان البلوغ يسبق سن العشرين عند الرجل السوي ، والأمر الثاني ذكر فيه تعليق عبد المطلب على قوله لعلي والحقيقة ان عبد المطلب مات ولرسول الله ﷺ ثمان سنوات كما تقدم ، وعلي ولد قبل البعثة بعشر سنوات والنبي ﷺ لم يبعث إلا عند سن الأربعين لذلك يكون الفارق بين موت عبد المطلب وولادة علي اثنان وعشرون عاماً ، وذكره انه حدث من كان بمكة من أهل العلم ولم يذكر من هم أهل العلم بمكة ولا علمهم ، أهم من الأحناف؟ أم هم من أهل الكتاب ؟ أم من العرافين ؟ لم يحدد ذلك.

وكان للكليني في أمر الرؤيا تفصيل في ارتباطه بأمر النبوة بقوله " الرسول الذي يأتيه جبرائيل قبلاً فيراه ويكلمه فهذا الرسول أما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا ابراهيم ونحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرائيل عليه السلام من عند الله بالرسالة ، وكان محمد ﷺ حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه جبرائيل ويكلمه قبلاً ".

وعليه فإن الاتفاق بين المحدثين في الصحاح والمؤرخين واضح جداً في أمر الرؤيا الصادقة قبل البعثة دون تحديد زمن بدئ هذه الرؤيا وعدم ذكر شواهد لها ، وخرج عن هذا التوافق اليعقوبي في روايته التي حدد فيها سن رسول الله ﷺ عند بدئ الرؤيا الصادقة وذكر تفاصيل تخالف الاتفاق على مضمون الرواية ، وأضاف الكليني تفاصيل عن موضع الرؤيا وتعلقها بالنبوة لم يذكرها غيره ، وأخيراً أقر الباحثين بصحة هذه الروايات فلم يورد أحد منهم ما يفيد بنفي أو معارضة أو تعليق على الحدث ، فالبعض ذكرها وحسب والبعض لم يذكرها أصلاً ولم ينكر حدوثها .

ثانياً : رؤية الضوء وسماع الصوت والسلام عليه بالنبوة من الحجر والشجر قبل البعثة .

أول الروايات في هذا الموضوع لمسلم عن قوله ﷺ " إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل ان أبعث إني لأعرفه الآن "، والرواية الثانية عند المحدثين في الصحاح أوردها الترمذي بنفس معنى رواية مسلم إلا انه قال ليالي بعثت بدل قوله قبل أن ابعث، ووصف الترمذي هذا الحديث بأنه حسن غريب.

وأورد الترمذي رواية أخرى عن علي بن ابي طالب قال " كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله "، وكذلك قال عنه حديث حسن غريب، وهذه الرواية ليس فيها ما يدل على زمن خروجهما هل كان قبل البعثة أم بعدها .

ولم يذهب المؤرخون بعيداً برواياتهم عن مضمون روايات المحدثين حول سلام الحجر والشجر على رسول الله ﷺ بالنبوة قبل البعثة ، فيروي ابن اسحاق ما نصه " ان رسول الله ﷺ حين أراد الله عز وجل كرامته ، وابتداءه بالنبوة ، كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه وسمع منه فيلتفت رسول الله ﷺ خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا الشجر وما حوله من الحجارة وهي تحييه بتحية النبوة ، السلام عليك رسول الله "، وأورد ابن هشام الرواية بنفس اللفظ إلا انه أضاف كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر بشجر ولا حجر إلا سلم عليه بالنبوة وأضاف أيضاً انه مكث بمكة يرى ويسمع ما شاء الله ان يمكث.

وأورد ابن سعد في روايته الأولى ما يوافق قول ابن اسحاق تماماً، وفي الرواية الثانية التي يرويها ابن عباس عن أم أيمن حول حضور أبي طالب وعمات رسول الله ﷺ إلى صنم تجتمع عنده قريش يوم في السنة ويتخذونه عيد ، وأنهم ألحوا على رسول الله ان يحضر معهم وذلك قبل ان يوحى إليه فحضر وغاب عنهم ثم جاءهم فزعاً وأخبرهم انه يخشى ان يكون به لمم ، وطمئنوه ان الشيطان لا يسلط عليه وفيه من خصال الخير ، واستفهموا منه عما جرى له فأخبرهم أنه كلما دنى من صنم منها تمثل له رجل أبيض طويل يصيح به وراءك يا محمد لا تمسه ، وانه لم يعد يقترب من هذه الأصنام حتى تنبأ.

وفي الرواية الثالثة له يورد قوله ﷺ بأنه يُعلم خديجة بنت خويلد بما يرى من الضوء ويسمع الصوت ويخبرها بأنه يخشى ان يكون كاهناً ، فتقول ان الله تعالى لا يفعل به ذلك لأنه يصدق الحديث ويؤدي الأمانة ويصل الرحم، وروايته الرابعة عن ابن عباس بنفس المعنى في روايته الثالثة إلا انه قال لخديجة أخشى ان يكون فيّ جنن بدل قوله انه يخشى ان يكون كاهناً ، وأضاف بأنها أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال : ان يكن صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى ، فإن يبعث وانا حي فساعزره وانصره وأومن به، وهذه الرواية فيها ما يدل على عدم إدراك ورقة بن نوفل للبعثة وانه لم يؤمن لكن ما أورده الترمذي يدل على غير ذلك فعن عائشة زوج رسول الله ﷺ تقول : "ان رسول الله ﷺ سئل عن ورقة فقالت له خديجة انه كان صدقك وانه مات قبل ان تظهر فأجاب رسول الله انه رأى ورقة في المنام وعليه ثياب بياض ولو كان من أهل النار لكان عليه غير ذلك"، وقال الترمذي في هذا الحديث " هذا حديث غريب ، وعثمان بن عبد الرحمن ليس عند أهل الحديث بالقوي ".

وآخر روايات ابن سعد فيها تحديد لزمن بدئ سماع الصوت ورؤيا الضوء بقوله "أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة سبع سنين يرى الضوء ويسمع الصوت ، وثماني سنين يوحى إليه "، وهذا الحدث فيه تفاصيل يطول بها المقال هنا سيأتي ذكرها لاحقاً .

وان روايتي الأزرقي التي سبق ذكرها في موضوع حفظه ﷺ من معايب الجاهلية تؤكدا انه لما انكشفت نمرته نودي يا محمد عورتك فذلك أول ما نودي، وهذه الحادثة وقعت عندما شارك رسول الله ﷺ في بناء الكعبة والتي رجح انها في السنة الخامسة قبل البعثة ، وعليه ان صحت روايتي الازرقي بأنه أول ما نودي في تلك الحادثة فذلك يدل على انه مكث خمس سنين يسمع الصوت قبل ان يبعث نبياً .

واقتصرت رواية البلاذري على تحديد الشجر بأنه يسلم عليه ولم يذكر الحجر فيقول عندما كان يخرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ويفضي إلى الشعاب والأودية فلا يمر بشجرة إلا قالت السلام عليك يا رسول الله فيلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً، وفي روايته الثانية حدد يوم الاثنين في السابع عشر من رمضان وفي غار حراء أول نزول الوحي وذلك عند سن الأربعين لرسول الله ﷺ وذكر انه قبل ذلك كان يرى ويسمع، ولم يذكر يسمع ويرى ماذا ؟ وما المدة التي مكثها ﷺ قبل البعثة على هذا الحال .

لكن الفاكهي على خلاف ما تقدم من روايات فيذكر ان السلام عليه من الحجر والشجر بالنبوة كان بعد ان نزل عليه الوحي ، فيذكر في الحديث الذي ترويه عائشة عن رسول الله ﷺ قوله " لما استعلن لي جبريل عليه السلام بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ".

وحدد اليعقوبي ان جبريل عليه السلام هو الذي كان ينادي رسول الله ﷺ ويكلمه من السماء ومن الشجر ومن الحجر ومن الجبل ، ويذكر ان ذلك كان يذعر رسول الله ﷺ ، وبين انه صرح له أول مرة بان قال له ان ربك يأمرك ان تجتنب الرجس من الأوثان ، فأول مرة كان يذكر ذلك لخديجة عما سمع ، فطلبت منه ان يستر الأمر وقالت له اني لأرجو ان يضع الله بك خيراً.

ووافق الطبري في روايته الأولى ما ذكره ابن هشام في روايته متقدمة الذكر وابن سعد وغيرهما، أما روايته الثانية فهي تجعل أول معاينة ورؤيته آثار وأسباب من أراد الله إكرامه واختصاصه بفضله منذ كان صغيراً عندما جاءه الملكين اللذان شقا بطنه ويرى ان الأمر استمر بأنه ﷺ لم يكن يمر بشجر ولا حجر إلا سلم عليه.

وتوسع الكليني بالأمر فهو يذكر ان " كان في رسول الله ﷺ ثلاثة لم تكن في أحد غيره لم يكن له فيءٌ ، وكان لا يمر في طريق فيُمَر فيه بعد يومين أو ثلاثة إلا عُرف انه قد مر فيه لطيب عرقهِ وكان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له "، في هذا الموضوع كان هناك اتفاق على بعض النواحي واختلاف في البعض الآخر فالمحدثون في الصحاح ذكروا ان حجراً بعينه كان يسلم على رسول الله ﷺ قبل البعثة وليس كل الحجر ، وأكدوا قول رسول الله ﷺ انه ليعرف ذلك الحجر ، وفي قول آخر لهم ان الجبال والأشجار تسلم على رسول الله ﷺ ، أما المؤرخون فاغلب روايتهم متفقة على ان الحجر والشجر كان يسلم عليه بالنبوة قبل البعثة ، وان رسول الله ﷺ يلتفت عن يمينه وعن شماله وخلفه بعد ان يسمع الصوت فلا يرى إلا الشجر والحجر ، والبعض ذكر انه كان ﷺ يرى الضوء أو يسمع الصوت أو ينادى بان لا تمس صنم ، وذكروا انه كان يخشى على نفسه ان يكون كاهناً أو

يكون به جنون فيذكر ذلك لخديجة فتطمئنه بأن الله لا يصيبه إلا بخير لما فيه من حسن الخلق ، والبعض ذكر انها ذهبت إلى ورقة بن نوفل وعرضت عليه الأمر فبشرها بأن ذلك الناموس الأكبر .

والبلاذري اكتفى بذكر الشجر دون الحجر بانه يسلم عليه بالنبوة وان ذلك كان من مقدمات النبوة وقريب عهد منها ، وخالفهم الفاكهي بأن جعل سلام الحجر والشجر على رسول الله ﷺ بعد ان نزل عليه جبريل عليه السلام بالرسالة ، وتفرد اليعقوبي بقوله ان مصدر الصوت الذي كان يسلم على رسول الله ﷺ من الشجر والحجر هو جبريل عليه السلام ، وكذلك تفرد الكليني بذكره أمور لم يذكرها غيره من ان رسول الله ﷺ ليس له فيء ، وان طيب عرقه يدل على مروره بالمكان حتى بعد أيام ، وان الحجر والشجر يسجد له ولم يقل يسلم عليه ، وقوله هذا له صلة بقول الراهب بحيرا عند رحلته إلى الشام وهو صغير كما تقدم بأن قال انه لما أقبل من العقبة لم يبقى حجر ولا شجر إلا سجد له .

تباينت آراء الباحثين حول هذه الروايات فالعمري يؤكد سلام الحجر على رسول الله ﷺ قبل البعثة كما أخبر ﷺ في الحديث الذي أورده مسلم ، وعلق في حاشية كتابه على حديث الترمذي سالف الذكر بأن في إسناده المجهول والضعيف ، وعدها باحث آخر من باب التدريب على التلقي من غير البشر فيقول "ان مخاطبة المجهول أو تلقي الخطاب من غير البشر ليس بالأمر الذي اعتاده الناس ، وإذا ما فوجئ به المرء ربما أذهلته غرابة المفاجأة ، بل ربما فقد صوابه ، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى ان يدرب رسوله قبل البعثة على هذا النمط من التخاطب ولذلك فإنه لما قرب موعد البعثة كان رسول الله إذا خرج لقضاء حاجته لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله "، ومن الواضح ان الباحثين لم ينكروا هذا الأمر .

ثالثاً : خلوته في غار حراء .

للبخاري ثلاثة روايات في هذا المبحث أولى تلك الروايات عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في الحديث الطويل الذي جاء فيه " ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلوا بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء "، لم يبين الراوي الزمن الذي بدأ عنده حب الخلوة قبل البعثة ولم يذكر مدة التحنث في كل مرة ، واكتفى بالقول يتحنث الليالي ذوات العدد ثم يتزود لمثلها ، وروايته الثانية عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ قال "جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت "، والرواية الثالثة موافقة للرواية الثانية تماماً لكنه رواها بسند مختلف عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ.

وكذلك رواية مسلم عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) وهي مطابقة نصاً لما أورده البخاري من رواية عائشة أيضاً كما تقدم، وعن عائشة أيضاً يروي الترمذي بقوله " وحببت إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من ان يخلو "، وعلق الترمذي على هذا الحديث بان وصفه حسن غريب .

ان ما أورده المحدثون في الصحاح ينحسر في طريقين للرواية الأول عن عائشة زوج رسول الله ﷺ مرسلاً والثاني عن جابر بن عبدالله موصولاً ، ولا نجد أثر للزمن في جميع روايات المحدثين وعليه لا نعلم كم مرة تحنث ولا مدة كل مرة.

لكن المؤرخون وفي أول رواية للزهري يورد إشارة إلى زمن بدء التحنث عند رسول الله ﷺ بقوله " وطفق رسول الله ﷺ بعد ما ولدت له بعض بناته يتحنث وحبب إليه الخلاء "، ومن المعلوم ان لرسول الله ﷺ من البنات أربع وقوله بعض بناته يحتمل اثنان ويحتمل ثلاثة ، وثاني بنات رسول الله ﷺ ولادة هي رقية ﷺ والراجح في ولادتها أنها ولدت في السنة الثامنة والعشرين من عام الفيل، على الرغم مما روي أنها ولدت ولرسول الله ﷺ ثلاثة وثلاثون سنة، وثالث بناته ولادة هي أم كلثوم ﷺ والراجح في ولادتها سنة تسع وعشرين أو ثلاثين من عام الفيل، أي انه حسب قول الزهري يكون تحنث ما يقارب العشر سنوات وعلى أقل تقدير حتى لو تحنث عند مولد آخر بناته ولادة وهي فاطمة ﷺ فان أرجح الأقوال في ولادتها انها ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة، وهناك من قال ان مولدها قبل الهجرة بثمان سنوات، أي في السنة الخامسة بعد البعثة ، ويبدو انه تصحيف وقع للرواية فقيل بعد خمس سنوات بدل قبل خمس سنوات ، وعلى القول الراجح في ولاتها ﷺ يكون رسول الله ﷺ تحنث خمس سنوات قبل البعثة ، ومجمل القول انه تحنث مابين خمس إلى عشر سنوات ، والرواية الثانية للزهري عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) توافق تماماً في متنها رواية البخاري التي رواها عن أم المؤمنين عائشة أيضاً.

وأول روايات ابن اسحاق كذلك عن أم المؤمنين عائشة جاء فيها "وحبب الله عز وجل إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من ان يخلو وحده "، وهذا القول يوافق قول الترمذي سابق الذكر مع إضافات عند ابن اسحاق في قوله وحبب الله عز وجل إليه الخلوة وقوله ان يخلو وحده ، والرواية الثانية عند ابن اسحاق وفيها أن رسول الله ﷺ كان يخرج إلى حراء في كل عام شهر ينسك فيه وذكر ان ذلك الشهر شهر رمضان ، وأضاف ان في آخر شهر خرج فيه رسول الله ﷺ إلى حراء ليجاور فيه خرج معه بأهله وجاءه جبريل عليه السلام برسالة ربه، رواية ابن اسحاق هذه حددت لنا مدة تحنثه في كل مرة وذلك ما لم يذكره ما تقدم من الروايات وحدد كذلك الشهر الذي يتحنث فيه وهو شهر رمضان وأكد على نزول الوحي إليه في آخر شهر تحنث فيه وان أهله كانوا برفقته هذه المرة ، وهذه المعلومات لم ترد في الروايات السابقة، وأكد ابن هشام رواية ابن اسحاق في انه كان يتحنث في شهر رمضان في روايته التي رواها بقوله " ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان "، ورواية ابن هشام الثانية وافقت رواية ابن اسحاق الثانية تماماً مع بعض الإضافات فهو يذكر ان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً وبين ان ذلك مما تحنثت به قريش في الجاهلية ، وان رسول الله ﷺ في جواره ذلك الشهر من كل سنة كان يطعم من جاءه من المساكين ، وبين ان أول الأعمال يقوم بها رسول الله ﷺ عند الانتهاء من جواره وعودته ان يطوف بالكعبة سبعاً قبل ان يدخل بيته ، وأكد ان جبريل عليه السلام جاءه في حراء لفي شهر رمضان عندما كان مجاوراً كعادته.